يَسْمَعُونَ حَسِيْسَهَا

الكتـــاب : يسمعون حسيسها

المــؤلــف : أيمن العتوم

تصميم الغلاف : أحمد الصباغ

رقم الإيداع : 2018/14371

978-977-6541-73-3 : I.S.B.N

المدير العام: محمد شوقي

مدير النشر: علي حمدي

مدير التوزيع: عمر عباس

01150636428

لمراسلة الدار Email: P.bookjuice@yahoo.com

الآراء الواردة في هذا الكتاب تعبر عن وجهة نظر الكاتب
ولا تعبر بالضرورة عن وجهة نظر الدار

جميع الحقوق محفوظة ©

عصير الكتب للنشر والتوزيع

أيمن العتوم

يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا

Hearing its Slightest Sound

روايـة

الإهداء:

إلى ثوّار الحـرّيّة . . . إلى الّذين يحـملون مـشـاعل الانتـصـار . . . ويكتـبـون بدمـائهم صـفـحـة المجـد والخلود . . . إلى الّذين يصنعون اليوم الفجرَ ، ويرفعونه على مآذن دمشق ، وينثرونه وروداً في ساحات النّضال على تراب سوريّة الحبيبة . . .

إلى شـهـداء (تدمـر) . . . أولئك الّذين جـعلوا من أجسادهم جسرًا يعبره الأحرار من ضفّة قلوبهم إلى شطآن أوطانهم ، عـبـر أكـثـر من ثلاثين عـامًـا من التّضحيات الّتي لم تنقطع . . .

إلى الشّمس الطّالعة من هناك كي تملأ الكون بالنّور ، بعد عقودٍ من دياجير الظّلام القاتمة . . .

إلى الشهداء الّذين يرتقون اليوم في الثّورة السّوريّة المجيدة استبشارًا بنصرٍ من الله وفتحٍ قريب . . .

توضيح من صاحب هذه الحكايات:

كلّ ما رويتُه في هذه الصّفحات صادقٌ دون مُوارَبة ، حقيقيٌّ دون تَمْويه ، وهو ليس الحقيقةَ الكاملة ، فهو لا يُساوي أكثر من عُشرها . . . إنّها مشاهداتي ومُعايشاتي لأيّام قضيتُها داخل مهجع (٢٧) ومهجع (٣٤) في سجن تدمر مِمّا تذكّرتُهُ ، أمّا بقيّة المهاجع فقِصَصُها ليستْ أقلّ فظاعةً من هذه القصص الّتي رويتُها هنا . . .

هذه الصّفحة من التّاريخ ، هي صفحةٌ من كتابٍ لم يُؤلَّف فيه إلاّ القليل ، وهي دعوةٌ لكلّ الأحرار الّذين عاشوا من تاريخ بلدي ما عشتُهُ ويملكون قلمًا حُرًّا أن يُسطّروا تجربتهم كما فعلتُ أنا ، فيضيفوا بذلك إلى كتاب التّاريخ صفحةً جديدة ، ثمّ يكتمل هذا الكتاب بمقدار ما يملك الأحرار من جرأة ومصداقيّة في رواية ما عايَشوه . . .

إنّها دعوةٌ لاكتمال الصّفحات ، ليس من أجلنا نحن الّذين خرجنا أحياء من تلك المقابر ، بل من أجل الّذين قضوا شُهداء وهم بعشرات الألوف إن لم يكونوا بالمئات ، ومن أجل المفقودين الّذين تنتظرهم أمّهاتهم عند كلّ شروق شمسٍ وعند كلّ غروبٍ ، ولا يعلم غير الله إنْ كانوا سيعودون يومًا أم سيُمعنونَ في الغياب!!

الطّبيب إياد أسعد

(١)
الصّفصاف والسَّرو

مثل أيّ طفلٍ في القرية ، نما عالَمي بين أشجارٍ ظليلة تحكي قصّة الذّاهبين ، وبين حقولٍ مورقة تروي فصولاً من حياة الرّاحلين . . . كانت السّحب العابرة في الأيّام المُشمِسة ترفعني إليها عبرَ خيالاتي المُجنّحة . . . وكانت الفراشات في فصل الرّبيع تغطّي كلّ شيء بما في ذلك صفحة وجهي السّمراء ، وكانت النّحل تهب عسلها للرّائحين والغادين عن طِيب نَفْس ، ولا تطلب مقابلاً حتى ولو كانت مجرد كلمة شكرٍ عابرة ، وكانت الورود تزكم أنوف الطّيور بروائحها الشّذيّة ، قبل أن تعبق في أنوف البشر أنفسهم . . . وكنتُ أجد بين أشجار الصّفصاف والسّرو مساحة للرّكض السّاذج تعبيرًا عن انطلاقات عفويّة لا يملك طفلٌ في مثل سِنّي لها رَدًا . وفي الينبوع الصّغير الّذي يتفجّر من رأس الجبل ويهوي إلى الوادي كنتُ أجد فرصةً للاستحمام الّذي لا ينتظر دورًا ولا إذنًا من أحد . . . هل كانت هذه الجنّة؟! إذا كانت هذه كذلك فأين جهنّم إذًا؟! مَنْ يدري ماذا يستتر خلف الغد . . .؟!

مَنْ يتحكّم بماضيه ليصنع مستقبله؟! مَنْ يعلم موعد العاصفة القادمة لكي يقف على قارعة الطّريق فيتنحّى جانبًا ويسمح لها بالمرور قبل أن تقتلعه معها إلى الفضاءات الذّاهلة ، فيصبح نُثارةً في مهبّ الرّيح؟! لو كنتُ يومها أعرف قيمة القلم والورقة ، لرسمتُ غدي الحالِم بيدي قبل أن ترسمه كائنات خارج الإنسانيّة لا تعترف بالبشريّة

مُطلَقًا ، إنّها كائنات قادمة من الجحيم نفسه!! وحينما كنتُ أتلهّى بتعريف الجحيم وقراءة الآيات الّتي تُخبر عنه لم أكن لأفهمه إلاّ عندما صرتُ في قلبه تمامًا ، وصار هو في قلبي . لا أحد يعرف الجحيم أكثر منّا ؛ نحن الّذين كُنّا هُناك!!!

هل كانت أمّي تعرف ما يمكن أن يخبّئه القدر لطفلٍ لاه مثلي؟! وهل كان أبي يُدرك أنّ الجحيم يُمكن أن يتشكّل في الحياةِ الدّنيا قبل الآخرة ، وأنّ على الأرض نموذجًا له يُعدّ حقيقيًا إذا ما عاشه المرء ، وتنقّل بين دَرَكاته؟! ولأنّه لا أحد يعلم الغيب ، فقد غرقتُ في لُجّ القدر ؛ ﴿وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الغَيْبَ لاسْتَكْثَرْتُ مِنَ الخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوْءُ﴾!!

يا إله السّماء : كم ناديتك لكي لا تتركني مع الوحوش ، ثمّ لم يكن للوحوش الوالِغة في دمي أيُّ ارْعِواء!! يا إله السّماء السّابعة : كم ناجيتُك لكي تُبقي على ما تبقّى من كينونتي الّتي انتزعوها من تحت جلدي ثمّ تركتَهم يستمرّون في انتزاعي منّي حتّى لم أعد أنا . . . أنا!!! أيّ حكمةٍ تتجلّى لي لكي أَعِيَها عنك يا ربُّ ، والسّباع تَغِل في دمي ولا تكفّ عن شربي حتّى آخر قطرة من روحي!! يا ربّ السِّدرة : حكمتَك ؛ فإنّي لم يعد لي منّي شيءٌ أستبقيه ليوم الفهم الأكبر!! يا ربّ المُنتَهى : لو كان المُنتَهى أن أنتهي قبل أن أروي عن القادمين من الكوكب الآخر لضاعت الحكمة إذًا ؛ ولاختفى التّجلّي ، ولامّحى الفهم!! يا ربّ الوحوش والكائنات الغريبة والمخلوقات الّتي لا تُشبه البشر في شيءٍ : ساعدني لكي أقول ما ينبغي قوله!! ساعدني لكي أنجح في قتل الخوف الّذي شرّش في أعماقي على مدى سبعةَ عشر عامًا!! ساعدني لكي تكفّ السّياط الّتي لا زلتُ أتخيّلها – بعد كلّ هذا العمر– تصطفق داخل رأسي صباح مساء ، ولا تَنِي عن نَهْشِ

خلاياي ، والفَتْك بعِظامي!!

***

طال شعرُ رأسي ، وتهدّل جزءٌ منه على كتفي ، كأيّ شابٍّ في السّبعينيّات كنتُ أجد في ذلك لذّة غامضة لا تحتاج إلى تفسير ، وكان بنطلون (الجينز) موضة العصر ، إضافةً إلى قميص (الكاروهات) ذي الياقة الواسعة الّتي تغطّي نصف الأكتاف ؛ ها أنذا مثل كلّ جيلي من الشّباب ، أجدُ في الحياة متعةً يمكن أن تُقتنص إذا ما غفل الحادي ، ونامت أعين الرّقباء . . . غير أنّ أبي سرعان ما قضى على كلّ ذلك بتشدّده الكارثيّ ؛ صار يُمسك بياقة القميص الواسعة ويشدّني منها حتّى أكاد أختنق ، ثمّ يعمد بعد ذلك إلى (الجينز) المعلّق خلف الباب فيُعمِل فيه المِقصّ ، وفي بِضْع لحظاتٍ يرميه على الأرض قِطَعًا مُمَزّقة ، ويصيح فيّ قبل أن يلطمني على وجهي :

– أنا مربّيك لَتْصير خنيث!!

– بَسْ هَيْ . . .

– خْراس يا ولد ، ولا تْبَسْبِسْلِي . . . يا ويلك إزا شِفتك مرّة تانية بها الهِبّز المجنون تبعك!!

ويتركني أصحو رويدًا رويدًا على استبدادٍ يبدو أنّه موروث ، أو ربّما أوحتْ به حكومات لم تُبقِ على شيءٍ لم تستبدّ به!!

غير أنّ أبي الّذي أذاقني من العذاب صنوفًا يستحقّ اليوم منّي الرّحمة الوابلة لسببين ، سوف يتبيّنان لاحقًا .

في البكالوريا رفع أبي المسدّس في وجهي ، وصرخ بكلّ ثقة :

– إزا ما جبت المجموع إلّي بِفَوْتَكْ كلّيّة الطّبّ ، والله لفَضّي هالرّصاصات بْراسك!!

ومرّة ثانية ، وجدني أجلس تحت شجرة بلّوطٍ في تلك الأيّام ،

ولم تكن بين يدي كتب البكالوريا ، فأمسك بجذع شجرة غليظ ، ثمّ رقى بجسده الّذي يزيد عن (١٢٠) كغم ، فقفز على ساقيَّ المدودتين تحته حتّى كاد يكسرهما ، وصاح وهو يتميّز من الغيظ :

– قاعد مِتْلِ الكلب هوني . . . هي كلّيّة الطّبّ بتستنّا كلاب متلك لَيْفوتُوّا!! مَ هيك يا كلب!! والله لَوَرْجيك!!

ولم تنفعني تأوّهاتي ، وصرخات آلامي ، بل سارع إلى كسر جذع آخر ، وراح يهوي به على وجهي ، فتخلّصتُ بالهروب ، ولولا نحولً جسدي ، وسرعة ركضي لما نجوت منه وهو يعدو ورائي ولا يتوقّف عن ملاحقتي!!

ومرّة ثالثة طُردت من المدرسة بسبب شِجارٍ بيني وبين أحد الأساتذة ، الّذي أُحرِج أمام الطّلاّب من ردّي عليه ، فبعث بي إلى المدير ، فقرّر المدير حينئذٍ طردي لثلاثة أيّام ، ولّما سمع أبي بذلك ، تناول سكّينًا كبيرًا من المطبخ ، وهُرعَ باتّجاهي وهو يلوّح بها ، ويصيح :

– أَنا باعتك عَ المَدرسة تا تنطرد مِنّا يا حَيَوان ، والله لإَدْبحكْ مِتِلْ ما بْتِنْدبح الجاجة . . .

وعندما كانت المفاجأة تتغوّل عليّ وتكاد تُسقطني لِما هالني من منظر أبي ، تسمّرتُ في البداية مكاني ، وقفز الدّم إلى عينيّ ، أمّا هو فتابع وهو يصيح على أمّي :

– هاتي الطُّشت يا حرمة ، والله لإَدْبَحُو دَبِحْ . . .

ركضتُ باتّجاه الحقول وأنا أرتجف من الخوف ، واختبأت خلف الأشجار حتّى يهدأ أبي . . . وكنتُ أظلّ على خوفي هذا حتّى يهبط اللّيل ، ولا تكون لي من شفيع إلاّ أمّي الّتي كانت تُقبّل رِجلَيْ أبي لكي يسمح لي بالمبيت هذه المرّة ، وتحلف له أغلظ الأيمان أنّه لن يعودَ لمثلها!!

هربتُ من أبي إلى المسجد ، وكأنّما وجد أبي حرمةً في ملاحقتي إلى هناك ، أو اطمأنّ إلى نقاء بعض الشّيوخ الّذين يدرّسون فيه ، فكفّت العصا عن الهُويّ على رقبتي ، والسّكين عن الارتفاع في وجهي ، واستسلم أبي لقُدسيّة المكان!!

تنقّلتُ في البكالوريا بين المدرسة والمسجد ، ظلّ الشّيخ (منير) يغرس الفضائل والقِيمَ في نفوسنا ، حتّى نمت ثمرتُها مع الزّمن ، وفتحتُ عينيَّ على أفكارٍ جديدة لم تكن لولا الشّيخ (منير) لتحلّ فِيّ ، وسارعت لقاءاتي عددًا من الشّباب في المسجد إلى بلورتها في حقل القلب المفتوح لكلّ شيء!!

وكان أبي يعود من عمله ، فيبدأ بالصّراخ على أمّي سائلاً عنّي ، وحينَ تقول له : في المسجد ، يخور مثل ثورٍ ويسكتُ على مضض!!

في المدرسة كان زجاج النّوافذ لا يستقرّ في أماكنه أسبوعًا ، أُبتليت المدرسة بشبابٍ مُخرّبين ، يحطّمون الزّجاج ، ويحفرون خشب الأبواب ، ويقتلعون الألواح من أماكنها ، ويكسرون (لمبات) الغرف . ومرّة استفحل الأمر ، فاستغاث أستاذ الصّفّ بالمدير ، فهُرِعَ المدير إلينا ، ولّما رأى الصّفّ على هذه الشّاكلة ، راح يصرخ :

– يا كلاب . . . إنتو قاعدين بْصِيْرِة . . .!! وْلا إنتا وْيّاه أبوك بْيِشتغل من الصّبح لَلْمسا مشان ربع ليرة تا يجيبلك دفتر . . .!! وْلا إنتا وْياه ليش بتكسْروا . . . وْلا لِبْغال ما بتساوي هيك . . . هو العلم ما إلو قيمة عَنْدكُنْ . . .؟!

رفعتُ يومها يدي ، مستأذنًا في الحديث ، فقال لي المدير :

– هاتْ لَشوف . . .

فقلتُ مستهزئًا :

– نِحْنا جيلَ الثّورة ؛ مَهيك بِتْقولو . . .؟! نِحْنا مين ربّانا هَيْ

التِّربايِة . .؟! إلّي بساووا هَيْ الشّغلة ؛ يعني بِكَسْروا وبِدَمْروا إنتو ربّيتوُن على هيك شي . أمّا إلّي بربّينا تِرْباية صحيحة على حبّ الوطن ، وحبّ الوالدَين ، بيجي واحد منكن بيكتب فيه تقرير ، بتروحوا بتحطّوه بْمَكان ما حدا غير الله بْيَعْرف فيه . . . يا أستاذ إلّي كسّروا وعمْلوا هَيْ العمايل منكن ، شباب بلا أخلاق من فِلْم لَفِلْم ، ومن سُكْر لسكر ، ومن بِنْت لَبِنْت . . . إنتو إلّي لازِم توقفوُنْ عند حَدُّنْ . . .!!

كان المدير يستمع إليّ وهو يستشيط غضبًا ، وعرف أنّني من جماعة الشّيخ (منير) ، فقال لي متحدّيًا :

– الطّالب إلّي بْتحكي عنّو من فِلم لَفِلْم ومن سُكْر لَسُكْر ومِن بِنْت لَبِنْت ، هادا طالب ثوريّ تقدّميّ ، هادا بْيِسْعى لبناء المجتمع العربيّ الاشتراكيّ الموحّد ، هادا طالب آثر المصلحة العامّة على مصلحتو الخاصّة . أمّا الطّالب إلّي كلّ وقتو للدّراسة والعلم ، وبْينجح بِالمَرتبة الأولى فهادا طالب أنانيّ ، ضرب المصلحة العامّة (مصلحة بناء المجتمع العربيّ الاشتراكيّ الموحّد بعرض الحائط) ، وعمل لَيْصير طبيبْ أو مهندسْ إيثارًا لَمصلحتو الشّخصيّة ، لَهيكْ الطّالب الثّوريّ يستحقّ أن تُقدِّم الدّولة له كلّ إمكانيّاتها ، أمّا الطّالب إلّي بْيُدْرس فهادا ما بْيِسْتاهِلْ أيّ مساعدة من الدّولة .

واستبدّ به الغضب أكثر ، فصار يصيح بي :

– ولا إنتا شو جايبك لهون؟! واحد مِتلك متخلّف رجعي لازم يكون هُنيك بالجبّانة (ونظر من نافذة الصّف إلى المقبرة الّتي تبعد عن المدرسة قليلاً) هُنيك مكانك الطّبيعيّ ؛ مقبور . . . والله لَنْحِطّك قذيفة بْمَدفع ، ونضربك على إسرائيل حتّى نِخلَص مِنّك . . .!!

كانت تربية المسجد تبعث في النّفس يقينًا ، وطمأنينة ؛ تحميني من أبي من جهة ، وتُريني فساد نظريّات يتبنّاها واحدٌ مثل مديرنا في المدرسة . . . مرّت أيّام البكالوريا ، ويبدو أنّ المسدّس الّذي رفعه أبي في وجهي حثّني على أنْ أحصّل مجموعًا يؤهّلني لدراسة ما كان يتمنّاه لي . . . وهكذا صرتُ طالبًا في كليّة الطّبّ بجامعة دمشق!!

(٢)
الزّنزانة رقم (١١)

في الدّور الرّابع للمستشفى الّذي صرتُ أعمل فيه ، كنتُ أفحص بين يديّ طفلاً انتفخَ بطنُه لطول ما أصابه من إمساك ، اتّصل بي المدير ، وسألني بصوت مرتبك فيما إذا كان مُمكنًا أن أوافيه إلى مكتبه للحديث في أمر يخصّ العمل . عرفتُ حالاً ماذا ينتظرني ، فكتبتُ الدّواء – على عجلٍ – لأمّ الطّفل ، وسارعتُ بالوضوء ، وصلّيتُ ركعتين لم أدرِ ماذا قرأتُ فيهما ، ثمّ نزلتُ من الدّرج قاصِدًا المخرج الخلفيّ للمستشفى . لم تكنْ فرصة نجاحي في الهروب كبيرة ، ولكنّني حاولتُ . حينَ لفحتْني نسمةٌ حارّةٌ من نسمات أوائل شهر تمّوز أدركتُ أنّ اللهيبَ قادمٌ ، وأنّ لحظات الاستحمام تحت ماء الينبوع ولّتْ إلى غير رجعة .

من النّافذة بدا لي المشهد ساحة حربٍ حقيقيّة ، حوالي عشرين آليّةً عسكريّة كانت تطوّق المستشفى من جميع جهاته ، وأكثر من مئة عنصر أمنيّ مزوّدين بالرّشاشات والمسدّسات كانوا يتحلّقون على شكل دائرة مُحكمة تحيط بالمكان . لا أدري كيف قرّرتُ بسرعة أن أهرب . . . أن أخترق النّقطة الأضعف تحصينًا في هذه الدّائرة ، وأُطلق ساقيَّ للرّيح ، لم أكنْ أملك غير بضع ثوانٍ لكي أنفّذ ما خطر ببالي لحظتها ، كان ممّا لا شكّ فيه أنّ اقتحام المستشفى وشيك ، وأنّ القنابل ستغطّي فضاء الرّؤية في القريب العاجل . . . أخذتُ نَفَسًا عميقًا ، وهممتُ

بآية الصّبر والرّضا ، وحدّدتُ زاوية الهرب ، أمّا السّرعة فكان الخوف والتّوق إلى النّجاة كفيلَين بأن يجعلاها أعلى ما يُمكن . . .

ركضتُ باتّجاه الحرّيّة . . . باتّجاه النّجاة . . . باتّجاه الفراغ مدفوعًا بالخوف من الآتي . . . باتّجاه الحُلُم الّذي يوشِك أن يسودّ . . . باتّجاه الجنّة الضّائعة توجّسًا من الجحيم المُرتَقب . . . ثلاثون مترًا كانت كفيلة بأن تَلحَق بي ثلاثون رصاصةً خلالها . . . وفي باطن فخذ الرِّجل اليُسرى استقرّت رفيقة الدّرب الّتي ستتعايش معي سبعة عشر عامًا . . . سقطتُ . . . سال الدّم سخينًا . كان صياحهم عالِيًا . . . فجأةً صمتَ كلّ شيء . بما في ذلك قلبي!!

اختلط اللّيل بالنّهار ، تداخَلا ربّما ، سبق أحدهما الآخر . . . ماذا يعني اللّيل والنّهار لسجينٍ صارت كلّ خليّة فيه مرتهنةً للدّولة ، وهو لا يملك حتّى أن يسحب هواءً الزّنزانة الخانق إلى صدره . . .؟! كان عليه أن يسترق ذلك ، لأنّه إنْ ضُبِطَ بالجُرم المشهود فسيحرّمون عليه هذا النَّفَس من أنْ يدخل إلى جوارحه ولو بالإكراه فيما بعد!!!

لا أدري كم مضى من الأيّام وأنا غائبٌ عن الوعي ، صحوتُ في غرفة معتمة إلاّ من لمبة ترتفع بتكاسلٍ على مكتبِ المحقّق ، كنتُ عاريًا إلاّ من (الشّيّال) و(الشّورت) . من خلفي عسكريّان ، ومن خلف المحقّق مثلهما ، حرّكتُ رجلي حركةً بسيطةً فندّتْ منّي آهةٌ عالية من الألم ، سارع أحد الّذين خلفي إلى لطمي بقبضة يده على رأسي ، وصاح :

– خْراسْ وْلا . . .!!!

تحسّستُ موضع الرّصاصة ، كان يبدو أنّهم عالجوا أثرها على عَجَلٍ في هذا المكان الّذي لم أتبيّن ما هو إلى الآن ، بعض الشّاش يلفّ قدمي ، والألم ما زال ينخرها نخرًا ، بدا ألم لطمة العسكريّ الّذي خلفي مسحًا على الرّأس قِياسًا إلى ألم رِجلي . . . قال أحدهم :

– فاقْ سيدي . . .!!

– طَمْشوه . . . طَمْشوه . . . وجيبوْه لَهُونْ . . .!!

وضع أحدهم الطّمّاشة على عينيّ ، أحسستُ بخشونتها ، شدّها من الخلف فضغطت على عينيّ بقوّة ، كدتُ أتأوّه ، فتذكّرتُ اللّطمة قبل قليل ، بلعتُها . . . قدّموني مترين من مكتب المحقّق ، وبقيت جاثِيًا على الأرض ، قال المحقّق :

– اسمك يا كلب . . .

(تباطأت قليلاً في الإجابة ، منّيتُ نفسي بأنّ السّؤال لا يقصدني . . . هوتْ لطمةٌ أقسى من سابقتها على رأسي من الخلف ، صاح بي الّذي لطمني) :

– اسمك يا شَر . . .

– إياد . . . إياد . .

– إياد أسعد . . . يا حيوان؟!

– نعم . . . نعم سيدي . . . إياد أسعد

– وْلا . . . شو علاقتك بالإخوان؟!

– ما لي علاقة يا سيدي . . .!!

– وبتكزِّب وْلا . . .

– والله ما إلي أيّ علاقة . . .!!

– وْلا . . . إنتا قائد بِالطّليعة . . . وما إلك علاقة . . . شلون صارت هَيْ . . . إعْترِفْ أحسنْ لَكْ . . .

– على شُو إعْترف يا سيدي؟!

– وْلا . . . إنتا حكمك إعدام من هَلأّ . . . إزا رَحْ تعترف ممكن يصير مؤبّد .

(بقيت واجِمًا ، صدمتْني الجملة الأخيرة ، غاب عن بالي أنّ

الموت يُمكن أن يقدّم نفسه على يدي إنسان) كانت فترة صمتي كفيلة بأن تنصبّ عليّ بعدها حمم العذاب . . .

انهالت عليّ (كيبلات) الأسلاك المعدنيّة ، في الضّربة الأولى كان الجِلدُ طريًا ، غاص الكيبل في اللّحم ، ماشى دورة الدّم في عروق الظَّهر ، خرج وهو يرنّ ، وخرجتْ معه صرخة الرّعب من أعماقي ، حاولتُ أن أنهض ، فتتابعت اللّكمات والكيبلات من كلّ اتّجاه ، ترنّحتُ قبل أن أتماثل للوقوف . . . جاءني (كيبل) من الخلف حَزّ رأسي ، وتابع سيره إلى عينيّ . . . تلقّت الطّماشة الأثر . . . انزاحت عن عينيّ قليلاً ، مازلتُ في وعيي لكي ألمح وجه المحقّق ينظر إليّ وهو يُرجع ظهره إلى الخلف ويبدو منتشيًا بمنظري وأنا أتلوّى تحت السّياط . . . راح الدّم يسيل في شُعبٍ على ظهري وصدري ووجهي . . . تركوني بإشارةٍ من سيّدهم وعادوا إلى وقفتهم ، وهم يلهثون . عادَ المحقّق السّؤال مرّة أخرى :

– وْلا . . . شو علاقتك بمحمود . . .

– مين محمود يا سيدي؟!

– وْلا . . . المسؤول عنّك بالتّنظيم . . . محمود الفحّام وْلا . . .

– ما بعرفو يا سيدي . . . أقسم إنو ما بعرفو!!!

– مو ناوي تعترف يا ابن الشّـ . . .

ثمّ صمت المحقّق ، وبإشارة أخرى منه ، بدأت جولة أخرى من العذاب . . . هذه المرّة قال لهم أن ينزعوا الطّمّاشة عن عينيّ ، لا أدري لماذا؟! ربّما كان يريدني أن أرى أدوات العذاب فيُضاعف في أثره النّفسيّ عليّ . . . غير أنّ توقّع الضّربة دون أن تراها ربّما يكون أقسى من الضّربة نفسها!!!

جاؤوا بسلاسل من الحديد ، أمسك اثنان منهما بيديّ ، والآخران

برِجليّ ، قرّبا عظمتَي الكاحل من بعضهما ، وراحا يشدّان العظمتين ، كان الألم لا يوصَف ، اختلط العرق بالدّم ، ثمّ اختلطت بهما سيّالاتُ من الدّموع . وشكّل الثّلاثة مزيجًا حامِضًا ومالِحًا وحُلوًا . . . لم يرحماني ؛ ربطا رِجليّ بالسّلسلة ، وشدّا على العظم ثانيةً فأحسستُ أنّ عظم الكاحل قد تهتّك ، وتفتّت داخل الجلد ، لم يعبَأ بصرخاتي الّتي ملأت المكان ، قيّد الآخران يديّ بالكلبْشات ، وسمعتُ أحدهما يقول :

– حُطّو بالدّولاب . . .

أمرني أحدهم : عُودْ بالأرض ، ضَهرَكْ وْإجْريك لَفُوق . أحضر الثّاني (دولاب الكاوتشوك) وغرسه في رِجليّ ورأسي ، صار الدّولاب دائرة تشدّ ظهري إلى رِجليّ المرفوعتين ، أمّا قفاي فهو على الأرض وبارتفاع رجليّ صارت أعضائي التّناسليّة صيدًا سهلاً لهم . وقف اثنان عند هاتين الرِّجلين ، ووقف الثّالث عند الرّأس ، وبدأت الحفلة المُرعِبة . انهمك اللّذان عند رِجليّ في ضربي عليهما بمواسير حديديّة ، كانت الماسورة الواحدة تهوي على الرِّجل فترضّها بثقلها ، وحين تنسحب صاعِدةً إلى الأعلى تخدش لحمَ باطن القدم بطرفها المُسنَّن ، ثمّ لا تلبث أن تهوي مرّة أخرى ، بدأ الدّم ينثعب ببطء ، ثمّ ما لبثت قدماي أن انفتح كامل الجِلد فيهما على القشرة الّتي تحتهما فصار الدّم يجري سيولاً . أمّا الّذي عند الرأس فأمسك (بكيبل) مجدول وراح يهوي به على رأسي المتورّمة من الحفلة الأولى ، حتّى إذا تعب تحوّل إلى الأمام ، وبدأ يضرب على الإليتَين ، ويتقصّد الخُصيتين ، فيتفاقم مستوى الألم إلى حدّ لا يوصَف . . . أمّا صرخاتي فلم تكنْ تعبيرًا عن هذا الألم بقَدْر ما كانت التِقاطًا للنَّفَس الّذي بدأ يتلاشى من صدري ، كنتُ أصرخ لأسحب الهواء إلى الدّاخل حتّى أحافظ على نَفَسي من